مجلة كلية

# الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية ثقافية تصدر سنوياً مؤقتاً


السنة الأولى - العدد الأول

1395 - 1394 - 1393

1985 - 1984

تصدر عن كلية الدعوة الإسلامية

طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

من قضايا الفكر والعقيدة

## دراسة في حلقات

## الحلقة الأولى:

# نحو منهج افضل لفهم قضايا العقيدة ودراستها

الأستاذ: الصديق يعقوب

(1)

بين يدي البحث: هذه الدراسة تحاول أن تتبع ـ إذا استطاعت ـ مراحل وأطوار هذه الرحلة الطويلة رحلة الفكر مع العقيدة، ورحلة الإنسان والجماعة الإنسانية والإنسانية جمعاء مع العقيدة والفكر.

والحقيقة التي لامراء فيها أن الانسان حيوان ناطق أي مفكر بالقوة دائمًا وبالفعل أحيانًا، و إذا مضينا في استعمال طريقة المناطقة فإنا نقول: كل مفكر معتقد، ونتيجة المقدمتين لهذا الدليل القياسي هي أن الانسان حيوان ذو عقيدة، ولعل هذا التعريف للإنسان أقرب إلى الحقيقة؛ لأنه أشمل من تعريف المناطقة وعلماء الاجتماع وعلم النفس له لأنه تعريف يحتويها جميعها.

من هنا يمكننا أن نتصور موضوع هذه الدراسة في صورة دائرة ذات مركز ومحورين: مركزها الإنسان، ومحوراها: الفكر والعقيدة وفي هذا التصور افتراض وهو ضروري لتقريب مرامي هذا البحث وآفاقه إلى الأذهان مع ما في طبيعته من خطوط متشابكة، ومحاذير قد تؤدي إلى شيء من التعتيم على معالم الصورة مع وضوحها في ذاتها.

(2)

إن المعرفة الإنسانية في آخر مرحلة وصلت إليها تمثل تراثًا ضخمًا ورصيدًا عظيمًا للعقل الانساني كمًا وكيفًا هذا إذا وضعنا في الاعتبار العامل الزمني التاريخي في مسيرة الإنسانية تواكبها المعرفة مع تذبذب خطوط الرسوم البيانية للفكر والمعرفة ارتفاعًا وانخفاضًا بين أمة وأخرى، وحقبة تاريخية وأخرى بل بين لون من المعرفة، ونمط آخر من هذه المعرفة. إننا هنا أمام رصيد هائل من المعرفة، وأمامنا نتائج مذهلة وصل إليها العقل الإنساني بوسائله المتعددة والمختلفة والمتطورة. ولكنها مذهلة فقط للعقل الإنساني المحدود في ذاته والمحدود أيضًا في نتائج معرفته. أما حقيقة الأمر، وأما الأمر في حقيقته فهذا هو المذهل حقًا، ولا يزال وسيظل كذلك لأنه الحقيقة المطلقة التي لا يحتويها المكان ولا تخضع لما تباين وتعدد من قيود الزمن وحدوده إنه: **«وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً»**(1) وهذا النص القرآني تصوير للحقيقة والأمر الواقع بالفعل سواء أكان المخاطب به يعيش في العصر الحجري، أم كان يعيش في عصر تحليل الذرة واستخدام العقل الآلي ذلك بأن هذا النص كما سلف القول يمثل الحقيقة المطلقة، والإطلاق يعني الخروج من دائرة الزمان والمكان بعد الخروج من كل الدوائر. ومما هو جدير بالملاحظة هنا أن هذا النص الكريم الذي يحدد درجة المعرفة الانسانية في كل عصورها السابقة واللاحقة يمثل في ذات الوقت الميزان القسط للمعرفة الإنسانية ورسم حدودها حيث يثبتها ــ على قلتها ــ كما هي ثابتة بالفعل وهذا يمثل حدًا وردًا لمذهب الشك الذي يمثل أحد اتجاهات الفكر الانساني قديمًا وحديثًا. كما أن هذا النص أيضًا يتحدى العقل ويستفزه من أجل مواصلة الرحلة إلى المجهول الذي لن يدرك آفاقه صانعًا ما صنع، وهو في بحثه المضني سوف يدرك الكثير ولكن هذا الكثير سيبقى دائمًا في دائرة القليل إذا وضعنا في الاعتبار دائمًا عامل النسبة بين المعلوم والمجهول باعتبار الموجود، ولعل التصوير والتصور لهذه النسبة يزداد وضوحًا من خلال تأملنا لنص قرآني آخر هو قول الحق تبارك وتعالى: **«قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا»**(2). إن **«كلمات ربي»** قد يذهب الفكر في مدلولاتها كل مذهب، ولكنها على أي معنى فهمناها تمثل معارف. والمعاني في كلمات الله لا محالة تربو على المباني، وإن العقل لو حاول جاهدًا أن يتمثل ما وراء هذا الغرض أو حتى هذا الغرض ذاته فإنه سينقلب خاسئًا وهو حسير.

إننا لا نقحم النصوص القرآنية في هذه المباحث الفكرية العامة إقحامًا لكننا نركن إلى مسلمة لا جدال فيها وهي أن نصوص القرآن في مجموعها إنما تعالج قضية العقيدة وقضية التشريع: تعالج القضية الأولى بما تتضمنه من حقائق كونية وإنسانية عامة، وتبحث الثانية من خلال ما تشتمل عليه من حقائق تضع في الاعتبار المتغيرات والثوابت في حياة كل الأفراد وكل الجماعات عبر حقب التاريخ المتتابعة والمتطورة تبعًا لتطور الانسان الاجتماعي والفكري والحضاري العام. وهذه النصوص وإن كانت في جانبها الثاني تتوجه إلى الإنسان المؤمن إلا أنها في شقها الأول تخاطب الإنسان بإطلاق: أي الإنسان الذي يبحث عن مرتكز متين للعقيدة، والإنسان الذي يتنكر للأصول الكونية والفطرية لهذه العقيدة، والإنسان الذي يحارب هذه العقيدة في ذاتها أو في أشخاص معتنقيها. وانطلاقًا من هذا المبدأ كان استخدام القرآن في هذا الجانب ــ جانب التمكين للعقيدة الصحيحة والبرهنة على أصولها ــ لقوانين الفكر، ووسائل مخاطبة الوجدان والعقل، واستخدام الأدلة الكونية

وكل هذه الطرائق من البرهنة والاستدال تمثل عوامل مشتركة بين أفهام بني البشر جميعًا.

ومن هنا ندرك وهن رأي من يرى أن الملحد أو المخالف في العقيدة لا يصح ـ منهجيًا ـ أن نستخدم في اقناعه والبرهنة له نصوصًا من القرآن بحجة أنه لا يسلم بها ومن ثم فهو لا يؤمن بمضمونها إن هذا الرأي واهٍ ومردود لما فيه من مغالطة: إننا لا نلزم الملحد بهذه النصوص ولكنا نلزمه بقضايا عقلية عامة، وقوانين فكرية شاملة اشتملت عليها هذه النصوص.

إن الوثنيين إبان نزول الوحي على محمد وعلى الرسل من قبله عليهم جميعًا صلاة الله وسلامه لم يعترضوا على البراهين التي جاء بها الوحي بحجة أنهم لم يسلموا بالوحي بعد ولكنهم ركنوا إلى سندٍ واهٍ حيث تعللوا بضرورة اتباع الآباء، وعدم إمكانية الخروج على القديم المألوف. فالإلحاد في كل صوره، والوثنية في شتى مظاهرها كل ذلك إنما هو مكابرة وجحود وتنكر لدلائل الكون الماثلة، وبراهين الفكر الملزمة قبل أن يكون إنكارًا للوحي ومعارضة لرسالات الله.

## (3)

العقل الإنساني من حيث مصدره منحة لبني البشر من خالقهم، ونعمة عظمى حظي بها الانسان ضمن هذا العدد العظيم كما وكيفا من الآلاء أما من حيث العمل المنوط به فإنه آلة الفكر و إحدى وسائل المعرفة. وأما من حيث دائرته التي يتحرك في إطارها فإن هذه الدائرة مهما رحبت إلا أنها تبقى محدودة ذات نطاق محصور بالنظر إلى طبيعة العقل و إمكاناته، وبالنظر إلى طبيعة المعرفة وقضاياها: ذلك بأن المعرفة تتنازعها مجموعة من الوسائل كل وسيلة تعمل في نطاقها وقد يشترك عدد من الوسائل في الوصول إلى إحدى حقائق المعرفة وقد تنفرد وسيلة واحدة بالوصول إلى حقيقة من الحقائق.

على أن عامل الزمن هنا له اعتباره وأهميته: فقد يستغرق الوصول إلى إحدى الحقائق عدة أجيال وعددًا من حقب التاريخ. وقد تنتهي الإنسانية في طور من أطوار تاريخها الفكري إلى ما يظن أنه حقيقة مسلمة ثم تستجد معطيات أخرى وتتفتح أبواب جديدة من المعرفة والفكر في إطار من البحث الجاد المثمر فيقتضي كل ذلك إعادة النظر في تلك المسلمات «القبلية» التي نعتت من قبل بأنها حقيقة. وفي التاريخ بعامة وتاريخ الفكر بخاصة صور كثيرة من هذا القبيل.

هذا التغير والتطور الدائم في دائرة الفكر والمعرفة الإنسانية يمكن اعتباره قصورًا ونقصًا بالنظر إلى ما يواكبه من عدم الثبات والاستقرار وعدم الاطمئنان إلى نتائجه كما يمكن اعتباره سعيًا إلى الكمال بالنظر إلى تطوره الموحي بالحيوية الكامنة فيه، وباعتبار ما يكتسب هذا الفكر من خبرات وتجارب ناجحة في كل مرحلة من مراحل تطوره.

## (4)

الفكر الإنساني عبر العصور ولدى كل الأمم وفي كل الحضارات يوحي للمتأمل فيه بأن العقل قاصر وليس

بكاف لقيادة الإنسان في كل عصوره، وفي جميع أموره، هذا إذا نظرنا إلى العقل من حيث طبيعته لكن هذه الحقيقة تتأكد إذا وضعنا في الاعتبار المؤثرات الخارجة عن العقل والمؤثرة فيه: سواء أكانت من البيئة أم كان منشؤها معارف وخبرات سابقة يسلم بها العقل ويستخدمها مقدمات لنتائج لاحقة. على أن العقل الكلي الكامل إنما هو مثال أما العقل الجزئي فهو عرضة لأن ينحرف عن مساره لسبب أو لآخر فيتعثر في سيره ويتخبط في نتائجه وإذا سلمنا بهذا فإن نتائج الفكر تبقى نسبية حتى تلك التي استخدمت فيها قواعد المنطق الذي عرف بين المفكرين بأنه: قانون يعصم الذهن عن الخطأ في الفكر. وتبين فيما بعد من خلال نتائج الفكر واختلاف المناهج «أن العقل الذي يمكنه أن يبني يمكنه في ذات الوقت أن يهدم»(3) وانطلاقًا من هذه المسلمة كانت ثورة الفكر الغربي المبكرة على المنطق الصوري وأشكاله. ومن قبلها كانت في الشرق الإسلامي معارضة شديدة لطرائق الاستدلال على قضايا العقيدة الاسلامية بالمنطق الأرسطي.

الجدير بالملاحظة هنا هو مانجده لدى بعض المفكرين الإسلاميين من إيمان مطلق بصحة نتائج الفكر التي انتهى إليها بعض حكماء اليونان. والأمر هنا لا يقف عند حد الإيمان بالعقل باعتباره مصدرًا من مصادر المعرفة ولكنه يتجاوز ذلك إلى الفكر ذاته مع أنه نتاج عقل جزئي يجوز عليه الخطأ كما يجوز منه الصواب. وأتساءل هنا كيف لايتأتي لمفكر بمثل عقل الفارابي أن يتصور اختلافًا بين رأى أفلاطون وأرسطو فيتمحل للجمع بين رأييهما حتى حين تصادفه العقبات ويجد بين مذهبيهما تعارضًا لسبب أولآخر؟ وكيف يمكن لمفكر بمثل عقل ابن رشد أن لا يتصور اختلافًا بين الفلسفة والدين؟ إن تبرير هذه التأويلات وهذه المحاولات في المشرق أو في المغرب في الشرق أو في الغرب من أي مفكر بحجة الدفاع عن اتجاه فكري معين والتمكين له أو بدعوى المحافظة على وجود المفكر ذاته والإبقاء على حياته كل هذا ليس بكاف لإبداء الرأي بهذه الصورة في مثل هذه القضايا المتصلة أوثق اتصال بأعظم ما منح الإنسان في هذا الوجود: العقل والدين.

إن الانحراف في فهم طبيعة العقل قد يصل ـ نتيجة لبعض الأسباب ـ إلى درجة يجعل فيها العقل ندًا للوحي كما فعل الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد حيث «لم يقف بالعقل عند كونه جهازًا من أجهزة في الكائن البشري يتلقى الوحي، ومنع أن يقع خلافٌ ما بين مفهوم العقل وما يجيء به الوحي ولم يقف بالعقل عند أن يدرك ما يدركه ويسلم بما هو فوق إدراكه بما أنه هو والكينونة الانسانية بجملتها غير كلي ولا مطلق، ومحدود بحدود الزمان والمكان بينما الوحي يتناول حقائق مطلقة في بعض الأحيان كحقيقة الألوهية وكيفية تعلق الإرادة الإلهية بخلق الحوادث وليس على العقل إلا التسليم بهذه الكليات المطلقة التي لا سبيل له إلى إدراكها.. فالعقل والوحي ليسا ندين فأحدهما أكبر من الآخر وأشمل، وأحدهما جاء ليكون هو الأصل الذي يرجع إليه الآخر، والميزان الذي يختبر الآخر عند مقرراته ومفهوماته وتصوراته، ويصحح به اختلالاته وانحرافاته فبينهما ولاشك توافق وانسجام ولكن على هذا الأساس لا على أساس أنهما ندان متعادلان»(4).

(5)

انتهى بنا البحث إذن إلى أن العقل مصدر أساسي من مصادر المعرفة ولكن المعرفة في نطاقه تبقى محدودة لا

تحقق تطلعات الانسان الدائمة اللامحدودة إلى المعرفة: فالانسان بطبيعة تكوينه ونظرًا لوجوده في هذا الكون يتطلع دائمًا إلي اختراق الحجب لكشف ما وراء هذا الكون المعلوم من مجاهيل على أن الجدير بالملاحظة هنا هو أن المعرفة المجردة وحدها قد لا تكون حرية بهذه الجهود المضنية التي بذلها وما زال يبذلها الإنسان في سبيلها لكن المعرفة قد تكون غاية وجديرة بهذا العناء إذا ما ارتقت إلى درجة أسمى من مجرد المعرفة إنها درجة الاعتقاد، إن المعرفة إذا سمت إلى هذه الدرجة تسيطر على كيان الانسان كله وتكون موجهة له بعد أن كانت من قبل يوجهها الفكر بمناهجه ويكيفها الانسان كيف شاء. إن المعرفة حين تكون بهذه الدرجة من القوة أي حين تكون عقيدة لا يتأتي أن تستند إلى العقل وحده فتعتمد عليه وهو جزء من الانسان في حين أن العقيدة هذه تسيطر على الانسان كله. إننا هنا أمام حاجة ملحة لمصدر آخر من مصادر المعرفة يتجاوز حدود المعرفة العقلية إلى آفاق وأبعاد أخرى، إن المعرفة الاعتقادية التي يبحث عنها المؤمن غير المعرفة المجردة التي يقنع بها ويقف عندها المفكر. إن الوسائل متغايرة كما أن الغايات متباينة. من السهل على المفكر أن يتراجع فيرجع عن بعض نتائج فكره أو يعدل فيها إذا تبين له خطأ في المنهج أو في الموضوع. ولكن من الصعب على المعتقد أن يتراجع عن عقيدته بل من الصعب عليه أن يعترف بخطأ فيها. وفي هذه الفروق يكمن السر في اختلاف مظاهر الصراع بين المختلفين في المذاهب الفكرية والمتباينين في العقائد الإيمانية إن قوة العقيدة تكمن في قوة مصدرها ووضوح براهينها وبساطتها وشموليتها ومن ثم فإن العقل في أحسن صوره غير كاف لأن يكون مصدرًا للعقائد في موضوعاتها بل إنه غير كاف لأن يكون مصدرًا للبرهنة عليها. و إذا اتسعت دائرة العقيدة لتشمل الكينونة الانسانية كلها وتسيطر عليها وتخرج بذلك من دائرة العقل المحدودة فإن مجالاً آخر يماثلها في هذه الشمولية إنه مجال الأخلاق. وحيث انتهى السير بالعقل إلى هذه القضايا الانسانية الشاملة فمن اللازم عليه ومن الأفضل له أن يتئد ليفسح المجال لمصدر آخر من مصادر المعرفة إنه الوحي ركيزة الدين ومستند رسالات الله. والوحي الإلٰهي في هذه الرسالات جميعها لا ينكر العقل ولا يتنكر له ولكنه يخاطبه ويهديه ويعتمد عليه ويعمل على توجيهه «في مسائل معينة هي:

أولاً: ما وراء الطبيعة أي العقائد الخاصة بالله سبحانه وتعالى وبرسله صلى الله عليهم وسلم وباليوم الآخر وبالغيب الإلٰهي على وجه العموم.

ثانيًا: في مسائل الأخلاق أي الخير والفضيلة وما ينبغي أن يكون عليه السلوك الإنساني ليكون الشخص صالحًا.

ثالثًا: في مسائل التشريع الذي ينتظم به المجتمع وتسعد به الإنسانية. وجاء الدين هاديًا للعقل في هذه المسائل بالذات لأن العقل إذا بحث فيها مستقلاً بنفسه فإنه لا يصل فيها إلى نتيجة يتفق عليها الجميع»(5).

(6)

الحقيقة التي يلزم التأكيد عليها لأن تاريخ الفكر والعقيدة يؤكدها هذه الحقيقة هي أن العقل والدين قد كانا دائمًا متعاضدين وكل ما يثبت بصحيح النقل فهو مؤيد دائمًا بصريح العقل. لكنا نلاحظ من جانب آخر

أن للفكر مع العقيدة شأنًا آخر لقد سارا أحيانًا في خطين متوازيين أما في بعض الأحيان الأخرى فقد كان بينهما لقاء واتفاق وبتأثير الاتجاهين كليهما نشأ ما عرف في الاوساط الدينية والفكرية بالفكر الديني.

إن الصدام بين الفكر والعقيدة أحيانًا أمر مقبول بقانون المنطق إذا وضعنا في الاعتبار قصور الفكر ومحدودية تصوراته، والمؤثرات التي يخضع لها. وقد نميل هنا بحكم المنطق أيضًا إلى جانب العقيدة فنؤيده ونناصره وذلك إذا نظرنا إلى العقيدة من خلال مصادرها الموثوقة بعيدة عما قد يعلق بها من شوائب. لكنا من جهة ثانية وباعتبار آخر مضطرون إلى الوقوف بجانب الفكر مهما كان قاصرًا ومحدودًا إذا كان المقابل له إنما هو اللاهوت(6) أي العقيدة من خلال وجهات نظر معتنقيها إذ العقيدة في هذه الحال قد تكون بعيدة كل البعد عن أصولها بل قد تكون متناقضة مع هذه الأصول فيلجأ الباحث حينئذ إلى الفكر بقصد التمييز بين هذه التصورات المتعددة والمتباينة في إطار اللاهوت أو في دائرة الفكر الديني وهذه الخطوة إنما تتم في غياب نص الوحي الموثوق أو في وجوده مع إهماله تحت ضغط من مؤثرات خارجية أو داخلية في بيئة المؤمنين بهذه الرسالة الإلهية أو تلك.

وليس هناك ما يدعو إلى التأكيد و إيراد العديد من الأمثلة على أن هذه الأدوار والصراعات قد مر بها كل دين من الأديان بدون استثناء الاديان الثلاثة الأخيرة وخاتمها الإسلام إذا جارينا علماء المقارنة بين الأديان في استعمالهم هذا المصطلح في تعدد الأديان.

(7)

إن انزلاق اليهود إلى الهوة المادية والتحديد الساذج في تصوراتهم العقيدية وتحريفهم المتعمد لكتابهم المقدس، واستبدالهم فصولاً مختلقة من عند أنفسهم بمقاطع ونصوص صحيحة من الوحي كل هذا أعطى فرصة للمفكرين من اليهود وغيرهم بأن يقوموا بتوجيه النقد إلى اليهود واليهودية و إلى التوراة في صورتها المحرفة وهي الصورة الباقية بين أيدي المفكرين المتخصصين في مثل هذه المباحث والدراسات(7) ومما هو جدير بالاشارة هنا تلك المحاورات والنداءات المتكررة التي وجهها القرآن ـ وهو الوثيقة الدينية الوحيدة المقطوع بصحتها ـ إلى اليهود ضمن أهل الكتاب داعياً الرسول محمداً ﷺ إلى التدرج معهم في المجادلة والمحاورة وإلى الاحتكام للتوراة ذاتها إن كانت لديهم النية الصادقة في الوصول إلى الحقيقة فيما يجادلون فيه: «**قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**»(8) إن اختفاء أو إخفاء أو تحريف النص الأصلي الذي إليه ترجع أصول العقيدة، وعليه يعتمد المؤمنون في إيمانهم كل تلك العوامل وغيرها يعطي دفعة للقائمين بأمر اللاهوت فتتعدد التصورات وتنشأ المذاهب، ويتفرق أتباع العقيدة الواحدة إلى أحزاب وفرق وتتراءى في الأفق ثم تتمثل على أرض الواقع ضروب من الصراع ليس أقلها حدة صراع الأفكار حول ما يظن أنه عقيدة أو دين لكنه في حقيقته لا يتجاوز أن يكون أفكارًا أو تصورات شخصية للعقيدة والدين، إن الحقيقة الانسانية التي أيدها التاريخ في كل أطواره أن الإنسان يختلق أسباب الصراع اختلاقًا ثم يتذرع بذرائع من العقيدة والدين لا صلة لها بنشأة الصراع ولا باستمراره لأن هذا الصراع قد ينشأ حتى مع وجود النص المتفق عليه من قبل الجميع فلا يعدم المتخاصمون ما يثير الفتنة ويفرق الوحدة ويقسم الصفوف هذا هو ديدن أدعياء الإيمان وما هم بمؤمنين:

«وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَارَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ»(9).

**(8)**

لقد كانت المسيحية في دورها الأول في حياة المسيح والحواريين دعوة إلى التوحيد الخالص لكنها بعد رفع المسيح واختفائه من تاريخ الدعوة وموت الحواريين انتقلت إلى أدوار أخرى لن يكون آخرها هذا الدور الذي تمر به الآن حيث انتهى بها أتباعها من خلال المجامع المسيحية والمباحث اللاهوتية إلى تصورات متناقضة مع بعضها ومناقضة لأصولها الإلهية كما نزل بها الوحي على المسيح عليه السلام: «مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ»(10) فكانت نتيجة هذا الانحراف عن الأصل الإلهي ما نجده في المسيحية من هذا الخلط العجيب المتناقض بين التوحيد والوثنية في صورة التثليث بتطوراتها حيث اختلط فيها ما هو إلهي بما هو بشري بدون ضوابط أو حدود مما أوقع العقل الغربي الذي انتقلت هذه العقيدة إلى بيئته خطأً في حيرة لم يتمكن من الخروج منها إلا بالخروج من هذه العقيدة فكان انسلاخ الغربيين من المسيحية من الأسباب التي دعت القائمين بأمر المسيحية إلى أن يُعِدوا المبشرين المهرة للقيام بمهمة نشر المسيحية والدعاية والتمكين لها في أقطار أخرى من العالم خارج القارة الأوروبية بأساليب مبرمجة وخطط مدروسة تقدم هذه العقيدة المحرفة المتناقضة والمناقضة لأوليات العقل بعد أن زهد فيها معتنقوها تقدمها مع رغيف الخبز إلى الحشود من الجوعى في أدغال أفريقيا، وتبشر بها مع حقنة الدواء إلى الملايين من المرضى في أحراش آسيا. إن الذين تقدم لهم عقيدة بهذه الصورة لا تسمح لهم ظروفهم الحياتية بأن يتساءلوا عن مدى صحة هذه العقيدة أو زيفها فيتقبلونها مؤمنين وماهم بمؤمنين.

وهكذا تفقد العقيدة حقيقتها فتفقد بهذا أحقيتها وأتباعها فتحاول جاهدة أو يحاول المنتفعون بها على صورتها هذه جاهدين أن يكسبوا في نطاقها الأتباع الآخرين من أجناس أخرى وتستعمل في سبيل ذٰلك كل الوسائل الممكنة وجميع الامكانات المتاحة. وقد كان كل هذا سر التناقض الحاد والصراع الدامي بين ممثلي الفكر والقائمين بأمر الكنيسة في الغرب. ولم تكن الثورة داخل الكنيسة لتوقف هذا الصراع لأن تلك الثورة عُنيتْ بالشكل والمظهر أكثر من الأساس والجوهر حيث اعترضت على بعض الأجراءات داخل الكنيسة وشجبت بعض الممارسات اللادينية من قبل رجال الدين الذين لهم وحدهم حق تفسير النصوص، وبقيت المعضلة الأساسية في الدوائر المسيحية معضلة العقيدة المسيحية في تصور الإلٰه كما تقررها المجامع المسيحية الدورية وكما تصورها الدراسات اللاهوتية التي تذرعت بالفلسفة قصد الاستفادة منها والاستعانة بها في التمكين لهذه الدراسات داخل الدوائر الفكرية. والمتأمل قليلاً لمسيرة ومسارات الفكر الغربي فيما يتعلق بالمسيحية يلاحظ عدة اتجاهات في هذا الفكر فهناك اتجاه يساند المسيحية ويعاضدها وهناك اتجاه يعارضها ويفند أسسها. وهناك اتجاه لا يوليها اهتمامًا ولا ينشغل بها.

إن منشأ الانحراف في المسيحية كان على نمط ما سبقت إليه اليهودية من قبل إنه البعد قليلاً أو كثيرًا عن

النص الصحيح للوحي في فهم أصول العقيدة ثم عرض هذه القضايا للبحث في نطاق الفكر بمناهجه المتباينة فتنشأ الآراء المتناقضة، والمذاهب والفرق المتصارعة.

لقد انقسمت المسيحية على نفسها من خلال الكنيسة الممثلة لها إلى شرقية وغربية، وانقسم المسيحيون في دور من أدوار تاريخهم ـ وهو دور حديث نسبيًا ـ إلى كاثوليك وبروتستانت. ولم تقتصر الانقسامات في المسيحية وبين المسيحيين على هذا الحد. ولم تكن كل هذه الانقسامات راجعة إلى أصل من أصول العقيدة ولكنها في حقيقة الأمر إنما ترجع إلى قرارات المجامع وأمزجة الأتباع، واختلافهم بين محافظ متبع أو منشق مبتدع. وكان الفكر بحركته الدائمة وتطوره السريع ومذاهبه المتعددة يغذي هذا الاتجاه أو ذاك، وهو في الاتجاهين كليهما يبحث صادقاً حيناً وعابثاً أحياناً عن مرتكز صحيح للعقيدة المسيحية التي كتب عليه أن يلتقي بها فيلقي عليه الجزء الأكبر من أعبائها. وهو إذ يبحث بصدق يقترب من المسيحية الحقة ويبتعد في ذات الوقت من المسيحية السائدة بين المسيحيين اليوم وهو في قربه وفي بعده يلتقي وجهًا لوجه مع الإسلام.

## ( 9 )

في محيط الأمة الإسلامية وفي دائرة العقيدة الإسلامية والفكر الإسلامي بين الجماعة المؤمنة يعيد تاريخ الفكر والعقيدة نفسه فتتشابه الصور ولكنها لا تتطابق وذلك لعدد من الأسباب والمعطيات، على أن النتيجة والغاية التي انتهت إليها اليهودية ومن بعدها المسيحية لم ينته إليها الإسلام ويقيني أنه لن ينتهي إليها وذلك فيما أرى راجع إلى أن الاختلاف بين الإسلام من جانب واليهودية والمسيحية من جانب آخر ليس شكليًا مرتبطًا بمظاهر خارجية أو ظروف تاريخية واجتماعية وبيئية لكنه موضوعي وثيق الصلة بالجوهر. ومما هو جدير بالبحث هنا لتحديد معالم الصورة:

أولاً: تحديد بعض الصور التي برزت في تاريخ العقيدة الإسلامية وكانت من قبل قد ظهرت في تاريخ اليهودية والمسيحية.

ثانيًا: إبراز الفروق الجوهرية التي يلزم وضعها في الاعتبار.

ثالثًا: معالجة القضية في المحيط الإسلامي حيث العلاج ممكن وذلك لعدد من الأسباب. ولن يكون بحث هذه الجوانب مجزأة ولكن الدراسة ستتناولها منتظمة حتى لا يخرج هذا البحث عن إطاره المرسوم.

إن من سمات العقيدة أية عقيدة أنها تمر لدى معتنقيها بعدة أطوار تكون في الطور الأول موضع تقديس لها، وإيمان مطلق بها، وإذعان كامل لمضمونها، وعاطفة صادقة نحوها، وتقديم النفس والنفيس دفاعًا عنها وحفاظًا عليها وتمكينًا لها ثم يأتي من بعد ذلك طور آخر توضع فيه قضايا العقيدة موضع البحث والدراسة والنقد حيث تعرض أصولها على قضايا المنطق والفكر. وفي هذا الطور تتعدد الآراء وتتفرق الفرق وتؤول النصوص وتطرح الأسئلة وتشرع الأقلام ـ والسيوف أحيانًا ـ بين أتباع العقائد المتباينة بل بين أتباع العقيدة الواحدة من أجل الدفاع والمدافعة.

وقد مرت اليهودية بهذين الطورين ومن بعدُ كان شأن المسيحية كذلك ومن بعد الاثنتين كان كذلك شأن

المسلمين مع الإسلام ثم تباينت بين الإسلام وبين الديانتين من قبله المشارب والمسالك والمناهج والنتائج. لقد تفرق المسلمون فرقًا لا يحصيها العد حول قضايا تتصل بالعقيدة ولكن يلاحظ هنا أمران:

الأمر الأول: أن الخلاف الذي امتدت آثاره إلى الأجيال المعاصرة من المسلمين كان في بدايته خلافًا حول قضايا سياسية عولجت في جو من التعصب بعيدًا عن الدين ثم عملت السياسة في الأجيال المتلاحقة على إذكاء ناره و إحياء آثاره.

الأمر الثاني: أن هذا الخلاف كان متعلقًا دائمًا بجزئيات في العقيدة وينظر إليه دائمًا على أنه الانحراف وليس الأصل على أن القرآن الكريم كان دائمًا سدًا منيعًا أمام هذه الاختلافات بين هذه الفرق كان ذلك في الماضي وفي الحاضر هو كائن وفي المستقبل سيكون هذا السد المنيع أمام ما قد يكون من تفرق أو اختلاف. على أن نقد القرآن لاختلاف اليهود والنصارىٰ في عقيدتهم وتفرقهم على أنفسهم كان مؤكدًا من القرآن ذاته على أن الاختلاف ليس من طبيعة العقيدة وأنه في كل صورة برز فيها إنما هو مظهر من مظاهر الانحراف لا يقره القرآن بل يشجبه وينعاه على أنصاره ومؤيديه.

( 10 )

حين أعمل الفكر في قضايا العقيدة في البيئة الإسلامية لم يكن هناك بد من الاختلاف بعد الابتعاد عن المنهج الذي وضعه الرسول ﷺ وسار عليه من جاء بعده ممن عرفوا في تاريخ الفكر الإسلامي بالسلف. ومما هو جدير بالملاحظة هنا أن هذا المصطلح قد استعمل في فترات تاريخية لاحقة استعمالاً خطأ.

لم يكن في إمكان فرقة من الفرق الإسلامية وهي تعالج قضايا العقيدة وترد على الفرق المناوئة لم يكن في الامكان إغفال النص القرآني حتى في حال الاعتماد على قضايا المنطق والإستدلال العقلي وانطلاقًا من هذا المبدأ استعملت آيات القرآن حسب دلالاتها ومناسباتها ستارًا يتخفى وراءه الساسة للوصول إلى أهدافهم ومآربهم ويستخدمه الفلاسفة بتعسف للبرهنة على مذاهبهم وصبغها بصبغة دينية إسلامية ويلعب بألفاظه المتكلمون ليؤسسوا بناء الفكر على أنقاض العقيدة ويتناوله فلاسفة التصوف أو متصوفو الفلسفة ليحملوا ألفاظه من المعاني ما لا تحتمل.

إن الهوة التي انزلق فيها هؤلاء جميعًا على اختلاف مشاربهم وأهوائهم بوعي أو بدون وعي هذه الهوة هي التأويل وكان التأويل للنص بدرجات متفاوتة تبدأ بهذا النمط من التأويل الذي لا يأباه النص حسب الوضع اللغوي وفي ضوء النصوص الأخرى وتنتهي إلى نمط من التأويل يحرف الكلم عن مواضعه، ويطمس معالم النص حتى لا يبقى منه إلا الرسم ونجد نماذج من هذا في الاتجاه الباطني قديمًا وحديثًا وعند نفر من ذوي التصوف الفلسفي في طليعتهم محي الدين بن عربي إذا صحت نسبة الفتوحات والفصوص في طبعتهما المتداولة إليه.

إن قضية التأويل لها من الأهمية والخطورة بحيث انشطر المسلمون بتأثير منها قديمًا وحديثًا إلى سنة وشيعة. وعلى الرغم من المحاولات الجادة من بعض أعلام الفكر الإسلامي المعنيين بقضايا العقيدة في مقدمتهم أبو

حامد الغزالي وأبو الوليد بن رشد وابن تيمية بقصد وضع ضوابط للتأويل إلا أن تلك المحاولات لم تجد.

إن قضية تأويل النصوص القرآنية لا تمثل في ذاتها مشكلة مستعصية على الحل في إطار البحث المنهجي لقضايا العقيدة لو صدقت العزائم وحسنت النوايا لأن الآيات المتشابهة التي تحتاج إلى تأويل قليلة جدًا بل نادرة إذا ما قيست بالنسبة إلى الآيات المحكمة الصريحة في بابها والتي يمكن فهم الآيات المتشابهات في ضوئها ولكن كما سلف القول حين وجدت الفرق أن القرآن الكريم يمثل سدًا منيعًا أمام مثيري الخلاف والاختلاف بكل صوره وأسبابه وغاياته اختلق أقطابها مشكلة التأويل وفتحوا بذلك بابًا لم يتمكن المسلمون حتى الآن من إيصاده.

## ( 11 )

إن المعضلات التي نعانيها في دراستنا لقضايا العقيدة ومحاولتنا لفهم كلياتها وجزئياتها هذه المعضلات إنما نشأت في جو علم الكلام الذي نشأ في البيئة الإسلامية مقابل علم اللاهوت في العالم المسيحي، إن هذا اللون من البحث قد عمق الخلافات السياسية وأعطاها صبغة دينية عقدية ليست جديرة بها فنشأت في ظله الفرق وترعرعت المذاهب الكلامية ومنه استمدت عناصر الوجود والبقاء.

و إذا كان بعض الباحثين من مفكرين إسلاميين(11) ومستشرقين(12) يرون أن الفلسفة الإسلامية على حقيقتها إنما تكمن في هذه المذاهب الكلامية وما انتهت إليه من مباحث طريفة في بابها فهذا حق ولكن الحق أيضًا هو أن هذه المذاهب الكلامية بقدر ما اقتربت من الفلسفة ومناهجها كان ابتعادها عن العقيدة وطرائقها، لقد كانت هذه المباحث الطريفة إذن على حساب العقيدة. هذا ما يثبته تاريخ الفرق ويؤكده تاريخ نشأة علم الكلام فلم يكن هذا العلم في أي دور من أدوار تاريخه مقتصرًا على هذه المهمة التي حددها العلامة ابن خلدون في مقدمته ولا متضمنًا لها على الوجه الصحيح إنه يرى أن علم الكلام «علم يتضمن الحجاج عن العقائد الايمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذهب السلف وأهل السنة»(13) والمتصفح للكتب الأصول في هذا العلم لا يجد بغيته التي أشار إليها ابن خلدون إلا في مواضع قليلة لكنه سيجد ألوانًا من الجدل واللعب بالألفاظ وسيلتقي بمباحث لا صلة لها بالعقيدة وأصولها وليس فيها شيء من الدفاع عنها. فإذا وضعنا في الاعتبار أن معظم الكتب التي ألفت في علم الكلام وبمناهجه إنما كانت من أجل الرد على فرق محسوبة داخل دائرة الإسلام أصبح في إمكاننا أن نشكك في أمر قيام هذا العلم بتلك المهمة التي أشار إليها ابن خلدون. على أن الغريب والجدير بالملاحظة هنا هو ما ذهب إليه ابن خلدون من أن هذا العلم ـ علم الكلام ـ غير ضروري لهذا العهد أي عهد ابن خلدون: القرن الثامن للهجرة، «إذ الملحدة والمبتدعة قد انقرضوا، والأئمة من أهل السنة كفونا شأنهم فيما كتبوا ودونوا»(14). وموضع الملاحظة على ابن خلدون من وجوه عدة:

أولاً: ليس هناك عصر من العصور خلا من الملاحدة والمبتدعين من قبل ابن خلدون وفي عصره ومن بعده إلى يوم الناس هذا.

ثانيًا: من المسلم به أن طرائق الاحتجاج قد تختلف بين عصر وآخر ومن ثم فإن ما كتب قديمًا دفاعًا عن العقيدة قد لا يكون ملائمًا دائمًا للقيام بمهمة الدفاع عن العقيدة.

ثالثًا: إن حصر مهمة هذا العلم في الدفاع أمر ليس له ما يبرره: فنشر مبادىء العقيدة والمحافظة عليها نقية خالصة من الشوائب وأخذها في الاعتبار ضمن منهج الدعوة ووضعها دائمًا في دائرة القرآن كل هذه الأمور والمهام من المفترض أن تدخل في إطار هذا العلم.

رابعًا: على أن الجدير بالملاحظة هنا أن العقل الحديث داخل العالم الإسلامي وخارجه لم يعد بامكانه أن يدرك مباحث العقيدة الإسلامية ويستوعب كلياتها وجزئياتها بطرائق البحث القديمة لا من حيث موضوعاتها أحيانًا ولا من حيث مناهجها دائمًا.

خامسًا: الجهات المناوئة للعقيدة الإسلامية سواء أكانت هذه الجهات متمثلة في التيار اليهودي المسيحي المعادي سرًا وعلانية لهذه العقيدة أم في الاتجاه الالحادي المعادي للعقائد الإيمانية على الاجمال هذه الجهات جميعها قد غيرت من خططها الهجومية والدفاعية دائمًا: فالشبه التي تختلقها الشيوعية اليوم وتضعها في طريق المد الإسلامي فتلقنها الشباب، وتروج لها عبر كل وسائل الإعلام وتمكن لها بالقوة أحيانًا هذه الشبه لم تعد هي تلك الشبه التي كان يثيرها الزنادقة والبراهمة والدهريون وكنا نقرأها ونقرأ الرد عليها في مباحث المتكلمين. كما أن تعامل مدارس الاستشراق ومراكز التبشير مع الإسلام والمسلمين لم يعد على ذلك النمط الذي كان سائدًا في فترة سابقة بين آباء الكنيسة في حوارهم مع المفكرين الإسلاميين المعنيين بأمر العقيدة ومباحثها والدعوة إليها(15) لقد انتهى الأمر في هذا الشأن إلى لون من الالتواء بطرق البحث بدرجة يصعب معها ادراك الحد الفاصل بين الاطراء والثناء من جهة والتشويه والهجوم من جهة أخرى. لقد أصبح من المستساغ في ظل تعدد المناهج وتشابكها أن يكتب مستشرق عن العقيدة الإسلامية بحوثًا يكون لها شأن بين بني قومه أو بين من يكتب بلغتهم في حين أن هذه البحوث إذا ما عرضت على أصول العقيدة الإسلامية وبمنهجها تنتهي إلى النقيض(16).
أما في دائرة التبشير فقد استحدثت الكنائس ممثلة في مجلسها العالمي أنماطًا جديدة من طرق التبشير ووسائله ليس آخرها ما أعلن عنه في الدوائر المسيحية من تقديم المساعدات للأسر المسلمة التي شردتها الحرب في أفغانستان، و إيواء عدد من الأطفال المسلمين الذين فقدوا أسرهم في هذه الحرب على أننا لا نملك معلومات دقيقة عن الأسلوب الذي يستخدمه المبشرون في الدعاية للمسيحية وفي تشويه عقيدة الإسلام إن هذه القضايا جميعها وثيقة الصلة بمباحث العقيدة الإسلامية في تاريخ الإسلام المعاصر.

( 12 )

إن علم الكلام بوضعه الراهن وكما هو منذ قرون قد فشل فشلاً ذريعًا في القيام بالمهام الملحة المنوطة به وذلك بسبب من هذه الشوائب التي علقت به من خلال اتصاله الوثيق بتلك التيارات المتصارعة والمنتمية إلى هذه الفرقة أو تلك من عديد الفرق التي زخر بها تاريخ الفكر الإسلامي حتى أصبح الترويج للمذهب والدفاع عنه بعد الانتماء إليه هو الهدف الأول قبل التعريف بالعقيدة وتأييدها ببراهين العقل من خلال منهج القرآن.

أما الدعاوي العريضة بأن هذه الفرقة أو تلك هي التي على حق ومخالفوها على باطل وهم كفرة ملحدون أو فسقة مارقون وبالتالي فهي الفرقة الناجية وما عداها من الفرق هالكة، هذه الدعاوي لا زالت في تاريخ المسلمين المعاصر كما كانت من قبل حين صورها الغزالي في كتاب «المنقذ» كل هذا إنما نشأ في جو علم الكلام وبنمهجه الجدلي بعيدًا عن نصوص القرآن ومنهج الرسول ﷺ في فهم أصول العقيدة من هذه النصوص.

إن هذا اللون من البحث كما تصوره بحوث المتكلمين ودراساتهم قد استنفذ كثيرًا من الجهود في غير الاتجاه الصحيح ذٰلك لأن منطلق البحث والحوار سواء من حيث القضايا والموضوعات أو من حيث المناهج وطرق البحث كان من بدايته غير ذي صلة بالعقيدة وقضاياها فكانت نتائج هذه الدراسات على نسق مقدماتها: إنك تقرأ مؤلفا في علم الكَلام ثم تقرأ بعده عشرة أو عشرين في الموضوعات ذاتها فلا تجد كبير فرق بينها إلا ما تضفيه شخصية المؤلف على البحث من حدة أو اعتدال.

قد يكون هذا النمط من البحث بهذا المنهج مما أملته طبيعة العصر، وفرضته المعطيات الفكرية والثقافية بعامة والتي كانت سائدة آنذاك ولكن هذا لا يبرر أن تسير الدراسات المتصلة بقضايا العقيدة في تاريخ المسلمين المعاصر في نفس الاتجاه. لقد انتهت الدواعي التي كانت تفرض وجود مثل تلك البحوث، واستجدت قضايا ومناهج وظروف اجتماعية وثقافية وسياسية تتطلب بحوثًا في العقيدة مغايرة في موضوعاتها ومناهجها لما كان سائدًا من قبل من هذه الموضوعات والمناهج.

(13)

لقد شوهت صورة الخلافة الإسلامية بسبب الطريقة التي طرحت بها على بساط البحث في تاريخ الفكر الإسلامي المعاصر، وحين اطلع القراء مؤيدين أو معارضين لهذا النمط البسيط الفريد في تنظيم أمور الأمة وسياستها حين اطلعوا على ما كتب عن الخلافة علقت بأذهانهم شبه نظروا من خلالها الى الخلافة الرشيدة على أنها شبح مخيف وأنها مؤامرات تحاك وخطط تدبر ومعارك تدور ودماء تسيل كل ذٰلك من أجل الخلافة ولم تخرج إلى الوجود حتى الآن ــ فيما أعلم ــ دراسة موضوعية منهجية تقدم صورة للخلافة نقية، وتربطها ربط محكمًا بأساسها الأول والأخير المتمثل في مبدإ الشورىٰ كما حدده القرآن وطبقه الرسول ﷺ بعيدًا عن هذا الاجترار للأحداث التاريخية وخارج نطاق هذه التأويلات والاتهامات والاعذار التي توجه من هذا الطرف أو ذٰاك.

وعلم الكلام على الرغم من اعتباره قضية الإمامة من مباحثه إلا أنه لم يقم بهذا العمل الجليل بهذه الصورة الصادقة. وهذا مثال واحد يضاف إلى عدد كبير من الأمثلة تقدمت الاشارة إلى بعضها خلال هذه الصفحات.

(14)

لعل في هذا الذي تقدم ما يكفي لدعوة الباحثين في شئون العقيدة وقضاياها والمتطلعين إلى لون جديد من

البحث في هذا الموضوع القديم قدم التاريخ الإنساني كله لعل في ذلك ما يكفي لدعوة هؤلاء وأولئك دعوة ملحة صادقة إلى وقفة طويلة متأنية نعيد من خلالها النظر في هذا التراث من الفكر الديني الذي اختلط فيه الدين بالفكر والحق بالباطل والاعتراضات بالشبهات والنتائج بالمقدمات وخاض في قضاياه المحق والمبطل والمتبع والمبتدع والمؤمن والملحد حتى انه لم يعد في قدرة المؤمن أو الباحث عن الحقيقة في هذا الجيل أن يميز الخبيث من الطيب.

و إنها لمهمة صعبة ومجهدة ولكنها فريضة لابد منها لمن ينتمي للدين الحق وهو حريص في ذات الوقت على أن يعود هذا الدين إلى مركز القيادة والريادة في هذا العصر الذي تنازعت فيه المشارب فزخر بالمذاهب وأصبح النزوع إلى العقيدة أية عقيدة أمرًا تفرضه ظروف العصر وتياراته وانقساماته وتكتلاته قبل أن يدعو إليه صوت الدين بوحي من فطرة الانسان.

**( 15 )**

هذا الذي نرجوه ليس دعوة إلى طي صفحات الفكر الإسلامي القديم والوسيط طيًا كما أنه ليس تنديدًا خالصًا بالاتجاهات المتباينة والمتصارعة في دائرة علم الكلام قضايا ومناهج إن بعض الأسس السليمة في هذا اللون من الفكر قد وضعها الجهابذة من أعلامنا المفكرين ولو أنها لم تراع حتى من قبلهم هم أنفسهم لهذا السبب أو ذلك.

إن ما ندعو إليه الآن هو إعادة النظر في مباحث علم الكلام: إعادة النظر فيها من حيث القضايا والموضوعات و إعادة النظر فيها من حيث المناهج وطرق البحث و إعادة النظر من حيث صلتها بالقرآن ومنهج الرسول ﷺ قربًا أو بعدًا. المطلوب هو توجيه هذا اللون من الدراسة وجهة صحيحة بعيدًا عن الاتجاهات المتعارضة والتيارات المتصارعة والفرق المختلفة، بل بعيدًا عن علم الكلام ذاته ليكون ذلك العمل المرتقب في دائرة علم التوحيد أو علم العقيدة. إن تسمية هذا اللون من البحث بعلم الكلام توحي بانتكاسة هذا العلم وانحرافه من البداية إلى جوانب وأغراض من الجدل العقيم والتمويه المريب بل إلى استعمال العنف والاقتتال بالسيف بدل الحوار بالكلمة والدفاع عن وجهة النظر بالرأي والحجة واحترام الرأي المقابل، هذا اللون من البحث في مثل هذه القضايا جدير بأن نطلق عليه علم التوحيد أو علم العقيدة أو علم أصول الدين: إن قضية الوحدانية هو مرتكز الدين الإلهي ولذلك كانت لب جميع الرسالات على الإطلاق. وإن الوثنية بكل صورها وفي شتى مظاهرها هي التي تمثل جبهة الصراع المقابلة لقضية الوحدانية إن هذه التسمية هي التي تضع الأمور في نصابها، وهي التي تحدد مسار البحث وترسم خطوطه وتعين آفاقه من البداية. كما أنها هي التي تعصم الباحث من الوقوع في الخطأ في المقدمات أم في النتائج. وهي التي تربط جميع الرسالات السماوية برباط عقدي واضح فيكون من المحال التأرجح بينها وبين نقيضها. هذا من حيث الشكل أما من حيث الموضوع والجوهر فإن القضايا التي تبحث في محيط علم العقيدة تختلف منهجًا وموضوعًا عن تلك التي يبحثها علم الكلام، إن هناك قضايا من اللازم أن تطوى طيًا فتبعد عن دائرة البحث:

إن كل كلية أو جزئية تتصل من قريب أو من بعيد بذات الله المقدسة يجب أن تبقى بعيدة عن دائرة البحث العقلي وهذا هو المنهج السديد والرشيد في هذه القضايا وما شابهها لأنه هو المنهج الذي توحي به كل نصوص القرآن المتصلة بهذه العقيدة كما أنه هو المنهج الذي دعا إليه الرسول ﷺ، ولكن مؤثرات خارجية وداخلية في البيئة الإسلامية أقحمت هذه القضية في نطاق مباحث علم الكلام فوجدنا من علماء الكلام من يتصور واهمًا أنه أدخل الذات الإلهية المقدسة في مشرحة وصار ينظر إليها من خلال مجهره الموهوم. وهذا العمل عبث وهو نزول بالذات الإلهية المقدسة إلى أوهام العقول البشرية القاصرة بل إلى تفاهات هذه العقول مهما كانت الدواعي ومهما حسنت المقاصد والنيات.

إن من هذا القبيل مما يجب إبعاده عن دائرة البحث العقلي في علم التوحيد المباحث المتعلقة برؤية الله هل هي جائزة أم مستحيلة وبالقرآن هل هو مخلوق أم لا.

إن قضية الحرية الانسانية أو مسألة القضاء والقدر في جانبها المتصل بالانسان وضعت في إطار علم الكلام وضعًا مضطربًا مشوشًا بدون منهج ودون تحديد فكانت النتائج متباينة متذبذبة ارتفاعًا إلى حرية الإنسان المطلقة وانخفاضًا إلى الجبرية المطلقة وما بين الاتجاهين يقترب من أحدهما ولا يتوسط. وهكذا في غياب المنهج وفي اغفال بعض النصوص القرآنية وتأويل بعضها الآخر على غير قانون ثابت في التأويل في هذا الجو غابت الحقيقة في متاهات الشكوك وتسربلت بحجاب من ظنون الفلسفة وأوهام علم الكلام، وباء معظم المسلمين وغير المسلمين من مؤمنين وملحدين يظنون بالإسلام الظنون معتقدين أن الجبر هو الإسلام أو أن الإسلام هو الجبر وفي محيط علم الكلام ما زال الاتجاه الجبري من الاتجاهات التي تنتمي إلى الإسلام وليست منه في شيء.

بعيدًا عن منهج إسلامي أصيل في دراسة العقيدة وفهمها وتحديد قضاياها لم يزل بين المسلمين حتى اليوم «نزاع يفصم وحدتهم حول ما دار بين علي بن أبي طالب وغيره من الصحابة في مسائل الخلافة. فهل عَلَى وجه الأرض أمة تجتر ماضيها السحيق لتلوك منه خلافات قاسية كهذه الأمة. ولماذا نقحم هذه الأمور إقحامًا في شئون العقيدة ولماذا لا تبقى في نطاق الذكريات التاريخية التي تدرس كأي تاريخ لتؤخذ منها العبرة فحسب»(17).

هذه بعض اللمحات عن بعض الأساسيات التي يمكن أن تكون بداية لسير أفضل نحو دراسة العقيدة دراسة موضوعية منهجية واعية تستفيد من الماضي وتقدم للحاضر في محيط الفكر والعقيدة ما يمكن أن يكون تأسيسًا لمستقبل يبحث فيه الانسان أي إنسان قضية العقيدة بصدق وجد فيركن إليها ويحيا بمقتضاها وتلك على ما أحسب قضية العصر في كل قطر وفي كل مصر على تباعد الأقطار وتعدد الأمصار؟

## هـوامـش

1 ـ سورة الإسراء: الآية 85.

2 ـ سورف الكهف: الآية 109.

3 ـ صـ6 الإسلام والعقل: الدكتور عبد الحليم محمود.

4 ـ صـ19 خصائص التصور الإسلامي: الأستاذ سيد قطب.

5 ـ صـ18 الإسلام والعقل: الدكتور عبد الحليم محمود.

6 ـ في هذا الموضوع مفصلاً ينظر ما كتبه الدكتور توفيق الطويل في كتاب: قصة النزاع بين الدين والفلسفة.

7 ـ صـ276 : رسالة في اللاهوت والسياسة: اسبينوزا: الطبعة العربية ترجمت د حسن حنفي.

8 ـ سورة آل عمران: الآية 93.

9 ـ سورة البقرة: جزء من الآية 113.

10 ـ سورة المائدة: جزء من الآية 117.

11 ـ صـ38 الجزء الأول نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام: الدكتور علي سامي النشار.

12 ـ صـ116 الجزء الأول ابن رشد والرشدية: ارنست رينان: الترجمة العربية: عادل زعيتر.

13 ـ صـ458 المقدمة: عبد الرحمٰن بن خلدون.

14 ـ المقدمة صـ467.

15 ـ ينظر في هذا الموضوع: فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية: تأليف: لويس غوردب وج قنواتي ترجمة الدكتور صبحي الصالح والدكتور فريد جبر ص9 وما بعدها.

16 ـ نلاحظ أمثلة من هذا النمط في كتاب المستشرق المجرى جولد تسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام. وقد تبنت هذا المستشرق وبحوثه بعض المؤسسات الثقافية الدينية في أمريكا الشمالية.

17 ـ صـ11 من كتاب عقيدة المسلم: محمد الغزالي.